قد احتفظ للاسطورة بوقائعها واحداثها ، اي بهيكلها العظمي ، ولكنه لم يكسها بدمائها ، لم يزودها بالحياة . ذلك ان تعارضا اساسيا قد حدث بين الرداء العصري والهيكل القديم، ربما كان مصدره اللغة ، وربما كان مصدره البناء القصصي الجديد . ولكنه في اطار اي احتمال ، لم نكسب الا هيكلا فاقد الحياة ، القديمة والمعاصرة ، على حد سواء .

ماذا اذاً عن الجائزة الثالثة؟ انها جائزة الشعر، التي نالها الشاعر الكبير محمود حسن اسماعيل. وحقاً، هو شاعر كبير ، سنا ومقاما . وهو احد ابناء الجيل الرومانسي القديم ، الذي عاش في ذروة مجده الشعري ايام ابي شادي والهمشري وناجي وعلي محمود طه . وقد تميز اسماعيل من بينهم جميعا بذلك الصوت الذي دفع مندور لان يسميه « بوحش الشعر » ، الصوت المتدفق بلا اية حواجز من قافية او وزن او رويّ . ومع ذلك كانت تستجيب له كل قافية ووزن ورويّ ، بلا سدود تحول دون هذا الشلال الخصيب. من « اغاني الكوخ » الى « اين المفر » كان محمود حسن اسماعيل يضع في خريطة وعينا الشعري امجد صور الرومانسية المصرية في ثوريتها وفي نكوصها وفي ذلك النهر المتموج بين التمرد والاستسلام . وقد التقت رومانسيته الملتهبة مع تدفقه الغامر اروع لقاء بين الشكل والمضمون ، فاتسمت اعظم قصائده بوحدة داخلية عميقة قلما اكتشفنا لها نظيرا في شعر معاصريه . غير ان الرومانسية ما لبثت ان بالغت في نكوصها عن الثورة الشعرية ، وتوقفت عند اعتاب الاجترار الذهني المقوت ، في المشاعر والصور والاشكال . وتوقف الصوت العظيم عن الغناد بعد انشاد طويل دام عشرين عاما او يزيد. وتحولت القوة الثورية الدافعة في هذا الجيل الى نحيب سلبي خافت لم يجد خلاصا الا في الفرار الى احضان الرجعية الادبية. واضحت الرومانسية الثائرة من حيث الشكل ، دفاعا حارا عن اكثر القيم كلاسيكية في شعرنا . ومن حيث المضمون لم ترث من الكلاسيكيين الا اسوأ جوانبهم على الاطلاق ، وهو ان يمسي الشعر بوقا مباشراً « لكل » من يتربع على عرش السلطة .

وقد سقط محمود حسن اسماعيل صريعا لهذه الازمة التاريخية ، منذ كتب ديوان « الملك» قبل الثورة الى ان كتب ديوان « نار واصفاد » بعدها . في كليهما كان مجرد بوق يستطيب ان يوصف بالشعر، وهو ليس من الشعر في شيء . هكذا جاء ديوانه « قاب قوسين » الذي فاز بالجائزة هذا العام : تسجيلات اخبارية في حوادث العاطفة والسياسة والمجتمع ، حرمها الافتعال من التدفق القديم ، ولم يبق لها سوى تزييف المشاعر والقيم. ولم يعد الشاعر الكبير في السن والمقام الا عضوا دائما بلجنة الشعر بالمجلس الاعلى ، ومشرفا ثقافيا على برامج الشعر في الاذاعة ، وعضوا « يشترك في التحرير » بمجلة « الشعر » قبيل سقوطها العظيم بشهور قلائل .

ولم يعد امام لجنة الجوائز التشجيعية الا تسجيل السوابق الخطيرة .

شولوخوف وجائزة نوبل

اكسفورد ، من رونالد هينغلي:

كان منح جائزة نوبل للآداب الى الروائي الروسي شولوخوف مدعاة سرور لدارسي الادب السوفييتي، الذين يتفقون اجمالا على ان عمله العظيم « الدون الهادىء » هو افضل رواية سوفييتية . فرواية باسترناك « الدكتور جيفاغو » ، وهي الرواية الوحيدة التي يمكن ان تنافسها ، لا يمكن في الواقع ان تسمى رواية « سوفييتية » ، بالرغم من ان مؤلفها كان مواطنا في الاتحاد السوفييتي .

والحديث عن « الدكتور جيفاغو » يعيد الى الذاكرة ما كان قد اشيع من ان شولوخوف اغتاظ جدا عندما منحت جائزة نوبل الى باسترناك عام ١٩٥٨ ، اذ شعر انها كان يجب ان تمنح اليه هو .

وقد تفوه شولوخوف ببعض عبارات قاسية بخصوص باستراناك اثنـــاء مؤتمر صحفي عقد في ١٩٥٩ في السفارة السوفييتية في لندن ، وكنت حاضرا في المؤتمر . غير ان الفكرة بان اعطاء جائزة نوبل الى شولوخوف هو عبـــارة عن غصن زيتون تقدمه الاكاديمية السويدية الى السلطـــات السوفييتية – ومحاولة للاعتذار عن اساءتها لها بمنحها الجائزة الى « الدكتور جيفاغو »– هي فكرة ساخرة لا مبرر لها : فكل من المؤلفين يستطيع القول بانه كسب الجائزة عن جدارة واستحقاق .

هذه الجدارة والاستحقاق،في حال شولوخوف، تقوم في الواقع على كتاب واحد ، هو « الدون الهادىء » . فهذه الرواية تفوق بمراحل سائر نتاج قلمه ، بل ان اشاعة انتشرت ذات مرة بانه لم يكن هو مؤلفها ، بل انه حصل بطريقة ما على مخطوطة زعموا ان ضابطا روسيا ابيض قتل خـلال الحرب الاهلية كان قد كتبها . واضح ان هـــذه الاشاعة عبث وهراء . غير ان المرء اذا نظر الى كتـــاب شولوخوف المبكر « قصص الدون »الذي كتبه قبل ان يبلغ العشرين من عمره ، والى اعماله التافهة التي كتبها في وقت متـــأخر كقصته « مصير انسان » و روايته القصيرة « حاربوا من اجل وطنهم » ، فلا لوم عليه ان هو استغرب كيف استطاع مؤلفها ان يسمو الى ذرى « الدون الهادىء » . وبوسعنـا ان نقول الشيء ذاته تقريبا عن كتابه الآخر الطويل الوحيد ، رواية التجميع « التربة البكر » .

ان امكان التفكير جديا بان « الدون الهادىء » كان نتاج ضابط روسي ابيض لهو اعتراف بانعدام التحيز نحو البولشفيك لدى شولوخوف في قصه لقصة الثورة والحرب الاهلية في منطقة الدون . فحتى في نسخة ١٩٥٣ للرواية (ولعلها اميل جميع طبعات الكتاب الى الدعاية) من الصعب على القارىء الذي لم يعرف شيئا عن الرواية من قبل ان يستخلص منها ان مؤلفها كان مناصرا للحمر . وواقع الحال انه ما برح منذ عام ١٩٣٢ عضوا مخلصـا في الحزب ، ومنذ عام ١٩٦١ عضوا كاملا في اللجنة المركزية. لكننا نراه في « الدون الهـــادىء » يصور الحمر و البيض على السواء يرتكبون فظائـع تقشعر لهـا الابدان، ويبدو فيها شولوخوف بانه حقا الى جانب الانسان العادي ضد هؤلاء و اولئك معـا – وضد «الخضر» النكرات العديدين وقطاع الطرق المختلفين في السهول المنبسطة ، الذين يقفزون فوق صفحات كتابه الزاهية . وتبدو عواطفه السياسية ، كما تتجلى في الرواية ، عواطف قوزاقي انفصالي اكثر منهـا عواطف ماركسي . لهذه الاسباب فان عددا كبيرا من النقاد السوفييت استقبلوا الرواية عندما ظهرت (سواء في قسمها الاول في ١٩٢٨ او في قسمهـا الختامي في ١٩٤٠) استقبالا عدائيا . والواقـع ببساطة ان شولوخوف لا يتبـــع الاسلوب الادبي المقرر رسميا– الا وهو اسلوب الواقعية الاشتراكية، الذي يفرض على الكاتب السوفييتي ان ينتج قطعـا طويلة بمثابة اعلانات في صالح الاهداف التي يهدف اليها الحزب الشيوعي . وقـد ذكر ان شولوخوف نفسه قد تحدث حديث استخفاف بالواقعية الاشتراكية اثناء احدى زياراته العديدة الى خارج بلاده. ويستطيع المرء على اية حال ان يكون واثقـا من انه لا يعير كبير اهتمام لهذه النظرية ولا لاية نظرية اخرى . فان عداء الفكر عداء شديدا عنيفـــا هو جزء لا يتجزأ من نظرته العـــامة . ان عداء شولوخوف للفكر ليس خاصة محببة تماما ، لكنهـا كانت ذات فائدة له في كتابته « الدون الهادىء » . فهـــذا الكتـاب ليس فحسب واحدا من اعظم الروايات الاقليمية في العالم ، بل هو ايضا واحد من اعظـم الاعمال الروائية عداء للفكر ، بمعنى انه لا المؤلف ذاته ولا اشخاص روايته (فيما عدا استثناءات قليلة غير ناجحة ولا يعتد بها) ينتمون الى الانتلجنسيا. وحتى في الروايات الروسية في القرن التاسع عشر، التي تفوق الروايات السوفييتية من نواحٍ عديدة ، لا يوجد اثر طويل رئيسي فعلا مكرس لعرض لا فكري مباشر للافراد الذين لا يتمتعون بامتيازات والذين يشكلون الاغلبية الساحقة للشعب الروسي. وقد كان من مفاخر شولوخوف انه ملأ هذا الفراغ فيما يتعلق بالقوزاق القاطنين عند الدون، وانه عالج فظائع الحرب والاغتصاب والتعذيب ومظاهر العنف الكثيرة الاخرى بمهارة وقوة ادبيتين لا يمكن ان يضـــاهيه فيهما الا قـلة من الكتـّاب الآخرين في قرننا هذا .

وكما قلت قبلا، لا تتجلى قدرة شولوخوف التامة على معالجة هـذه المواضيع الصعبة الا في « الدون الهادىء » وحده . اما روايته الطويلة الاخرى « التربة البكر » فدون تلك بكثير من حيث التأثير والفعالية ، ولو انها تحتوي على بعض مقاطع غنية زاهية ، خاصة في الجزء الاول منها الذي ظهر عام ١٩٣٢ . وكان على القراء ان ينتظروا زهاء ثلاثين عاما قبل ان يكتمل الجزء الثاني . وظهرت الرواية آخر الامر كاملة في ١٩٦٠، تتقدمها، هي ايضا ، سلسلة من الشائعات — فلا مفر ، كما يبدو ، من انتشار الشائعات في كل ما يتعلق بشولوخوف. فقيل انه في نص من نصوص الكتاب (لم ينشر قط) سمح شولوخوف لبطله الشيوعي دافيدوف ان يهلك ضحيةً من ضحايا تطهيرات ستالين في اواخر الثلاثينات — وهو مصير لم يكن في تاريخ تلك الفترة ما يجعل تصديق القارىء له امرا متعذرا . غير انه قيل ان شولوخوف انصاع في النهاية الى اصوات الاقناع (والى نيكيتا خروتشيف كما تقول احدى الروايات). ففي النص المطبوع يجهز المؤلف على دافيدوف بشكل اقل تناقضا مع مقتضيات الواقعية الاشتراكية — عن طريق قتله على يد متآمرين من الروس البيض . ان شولوخوف شخصية شديدة قوية، وقد ابدى هذه الخاصية في ذاته عندما غامر فوصف التجميع في « التربة البكر » وصفا غير محتشم نسبيا ، ولو ان الرواية منحازة سياسيا اكثر من « الدون الهادىء » . وتقول احدى الروايات انه اظهر جرأته مرة اخرى بتوسطه لدى ستالين نيابة عن الفلاحين المحليين اذ ذاك ، ونيابة عن سواهم فيما بعد ممن كانت تهددهم التطهيرات .

ويتحلى شولوخوف بصفة جذابة اخرى (غير انها صفة يمكن ان تذهب بهجتها)هي روح الدعابة، التي تكشف عنها « التربة البكر » . كما انه كشف عن هذه الصفة في المرات العديدة التي قام فيها خطيبا عاما امام الجماهير ، كما في مؤتمر الكتّاب السوفييت في ١٩٥٤ والمؤتمر العشرين للحزب في ١٩٥٦ والمؤتمر الثاني والعشرين للحزب في ١٩٦١. في مثل هذه المناسبات كان يسمح لشولوخوف بان يعبر عن ذاته بلغة شبيهة باللغة التي كان يستعملها خروتشيف . ان هذا الضرب من الحكمة العنيفة المثيرة العفوية البسيطة هي من بعض نواحيها شيء منفر ، لكنها لا تبدو كذلك حين نقارنها بالرطانة المملة التي لا مهرب منها في حال من هم اقل شأنا منه في مثل هذه المناسبات . وهكذا فان خطب شولوخوف هي في العادة من اقل الخطب التي تتلى في المناسبات السوفييتية العامة اضجارا واملالا . وقد نام شولوخوف طول الربع قرن الاخير على امجاده ككاتب، وكان بالامكان ان يمنح جائزة نوبل في ١٩٤٠ تماما كما منحها في ١٩٦٥، اذ انه كرس الفترة ما بين التاريخين ، بنجاح اعظم ، للعلاقات العامة منه لخدمة ربة فنه .

وشولوخوف صغير الجثة ، ابيض اللون ، ذو عينين زرقاوين حادتين ، يتسم بالعدوانية من دون حاجة ويسارع الى الشجار . والعلاقة بينه وبين زملائه الكتّاب ليست طيبة ، وهو يسمح له بالتهجم عليهم باسلوب مباشر واضح ، في حين انهم يجبرون على اجابته علنيا بالتعابير الرطينية الرسمية (بينما ينشرون الاشاعات سرا بانه يقضي معظم وقته ثملا) . وهو ينظر الى كل النشاطات الأدبية السوفييتية ، عدا نشاطه هو ، نظرة احتقار بالغ، كما بيّن في مناسبات متعددة . لهذا فليس من المستغرب ان تكون علاقاته بكثير من الكتّاب السوفييت الآخرين علاقات غير ودية. يمكن النظر الى بعض هذه الحزازات (كخصامه مع الكسي سركوف ومع قسطنطين سيمونوف) بانها حزازات تشرّفه. لكن بعض المظاهر الاخرى لعلاقاته مع زملائه تكشف عن ناحية اقل امتاعا فيه — كاحتقاره لباسترناك وهجوماته المتتالية على اهرنبورغ . وهكذا فان هناك على وجه التأكيد ما بين الكتّاب السوفييت الاحياء عددا ممن هم اقرب الى القلب منه . لكن هل يوجد بينهم من كتب نثرا ادبيا خياليا يفوق في قوته وروعته ما كتبه مؤلف « الدون الهادىء » ؟